خاتم المارد وبساط الريح وقبع الاخفاء (١)

جاء في قصص الف ليلة وليلة وفي اخبار الملك سيف ذكرُ ثلاثة اشياء عجيبة غريبة لها من الخواص والصفات الخارقة المعتاد الاول منها خاتم المارد ومن خواصهِ ان حاملهُ اذا فركهُ بيدهِ مثلَ امامهُ مارد من المردة العظام يقول لهُ لبيك يا مولاي ماذا تريد فان قال اريد طعاماً او شراباً او لباساً احضرهُ لهُ في الحال . او قال اريد ان تبنيَ لي قصراً تحيط بهِ الجنات وتجري من تحتهِ الانهارُ وفيهِ احسنُ الرياش والاثاث وفيهِ العبيد والجواري على مراتبهم في الخدمة لم يلبثْ أن فعل لهُ ذلك لافرق بين ان يكون القصرُ في البرّ فوق مرتفعات التلال الخضراء او في البحر على شاطئات الجزر الغضراء

والثاني بساط الريح ومن خواصهِ هذه الاداة ان تقطع بصاحبها المسافات الشاسعة التي لا يمكن ان تقطع بواسطةِ اخرى فاذا ضرب بساط الريح صاحبهُ لبّاهُ المارد الموكّلُ بهِ يقول امرُك يا مولاي ماذا تريد فيقول مثلاً انقلني الى مدينة كذا الى قصر ملكها الى غرفة منامهِ فينقلهُ باسرع من لمح البصر . وقد يحمل بساط الريح صاحبهُ فوق بحارٍ من الظلمات لا يهتدى فيها او فوق اراضٍ مسحورةٍ يستحيل قطعها لولا هذا البساط وما لهُ من الخصوصية الباهرة

الثالث قبعُ الاخفاء ومن خصوصياتهِ انَّ صاحبهُ اذا لبسهُ اختفى عن الاعين فاصبح يرَى ولا يُرَى . وربما باغتهُ مباغتٌ من عدوٍ مشاكس او سبع مفترس فيظن انهُ صار في قبضتهِ لكن بينما هو يبسم ابتسامة المنتصر الظافر اذا بخصمهِ صاحب قبع الاخفاء قد غاب من امامهِ بغتةً وتركهُ يحرّق اسنانهُ من شدّة الغيظ ومرارة الخيبة

يقولون ايها السادة والسيدات ان مؤلف الف ليلة وليلة رجلٌ حكيمٌ عاقلٌ اشبهُ بالفيلسوف بيدبا صاحب كتاب كليلة ودمنة فبعض حكاياتهِ وان ظهرت للعامة بمظاهر الهو والخرافات يقرأونها ترويحاً لنفوسهم وعجاراة لاذهانهم وتخيّلاتهم في عند التحقيق يشار بها الى حقائق حقة وعادات مرعية وآداب متبعة

واحقُّ قصصهِ بالتفسير والتأويل خبرُ هذه الاشياء العجيبة فانهُ لم يرُم بها على الخيل ولا اراد بها مجرّد ايهام الجمهور وترويض مخيلاتهم تمريناً لها على قبول الغرائب والمستحيلات الخوارق

(١) خطبة للاستاذ جبر ضومط استاذ العربية في المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت القاها في مدرسة البنات الاميركية في حفلة اعطاء الشهادات

كذا يقول كثيرون من جلّة اهل العلم والنظر على ما سمعت فارجع من ثمّ انهُ اشار بهذه الادوات الثلاث الى معان وظواهر لا ريب في وجودها لتطبق اوصافها على اوصاف هذه الادوات

دعونا اذن ننظر في تأويل هذه الادوات وبيان ما تشير اليهِ . اخاف ان تهزأوا بي ايها السادة والسيدات وتعدّوهُ من التخف ان تؤوّل هذه الاقاصيص كما تؤوّل كتب الحكمة والفلسفة . وقبلا يبعد ابتداء ان نقولوا في سرّكم ماذا اصاب هذا الرجل . متى خولط في عقلهِ . انخاتم المارد وبساط الريح وقبع الاختفاء تشير الى حقائق معنوية وجودية . ما سمعنا بهذا من قبل . بل غايةُ ما نظنهُ انها من خرافات المخيلة ولهو الحديث . والنكتة فيها إن كان فيها نكتةٌ انما هي غرابة تصوّر كاتبها وبُعدُ تخيّلاتهِ . لا تعجّلوا في الحكم ايها الشبان الادباء والسيدات الادبيات ولا تظنوا بي الظنون ايها الفضلاء والعقلاء . انما ارعوني سمعكم قليلاً وليسعني حلمكم وصبركم بضع دقائق فأبيّنَ في خلالها مغازي ما يراد بهذه الادوات العجيبة

خاتم المارد على ما يظهر من القصة واسطة بين من يحصل عليهِ وبين المارد اي بينهُ وبين قوّة عظيمة موجودة غير منظورة . وكذلك بساط الريح وقبع الاختفاء . أفرُضُ خاتم المارد بيدك فيحضر المارد بين يديك يقول اطلب ما تشاه أحضرهُ لك باسرع من لمح الطرف . إضربْ بساط الريح بالعصا التي اعطاكها المارد فيقفّ المارد لاجابتك ويحملك الى حيثُ تشاه ويقطع بك مسافة لا يمكن ان تقطعها بدونهِ . البس قبع الاختفاء فيحضر ذلك المارد بقوتهِ الخاصة بردُّ العيون عن ان تراك ويقيك المكائد والاضرار التي لولاهُ لوقعت بك . ترون اذن من القصة أنّ المارد الذي يمثُل بين يديك لخدمتك اذا فركت الخاتم هو نفس المارد الذي يحملك على بساط الريح ويقطع بك المسافات التي لا تقطعها بدونهِ وهو هو الذي اذا لبست قبعهُ يوارِيك عن عيون الاعداء ويقيك المكائد والاضرار التي كانت لتقع بك لولا وقايتهُ

وعليهِ فالخاتم والبساط والقبع انما هي اسباب محسوسة اذا امتلكت امتلك بامتلاكها قوة عظيمة جدًّا يعبّر عنها بمارد فيكون طوع اوامرك تحضرهُ عند الحاجة وتصرفهُ عند الاستغناء عنهُ . وفضلاً عن كون هذه الادوات اسبابًا اذا حصلنا عليها حصلنا على القوة هي ايضًا عبارة عن ثلاثة انواع من الخدمة التي يصرّف المارد في قضائها لا تشوّف النفس الى اكثر منها . لي بعدُ شيء اقولهُ وهو اذا قرأتم القصة وامعنتم النظر فيها جيدًا تروْن الكاتب لم يغفُل عن ان يلمح الى انّ هذه الادوات والاسباب المحسوسة يمكن ان يفقدها صاحبها واذا فقدها فقدَ مع فُقدانها قوة المارد ايضًا مع انهُ يبقى هو هو

ارى وقد قلت ما قلتهُ ان مغزى القصة لا يصعب بعدُ فهم المراد منهُ فان المارد عبارة عن قوّة حقيقية وجودية كنى بها صاحب القصة عن قوة العقل البشري وهذه القوة هي من اعظم القوّات الطبيعية في هذا الكون وما سواها من القوات خاضع لها لا يقوى على معارضتها فاذا سلمنا بذلك لم يبقَ شك في ان الادوات الثلاث يراد بها الاسباب المحسوسة التي اذا حصلنا عليها كانت القوة العاقلة قوة العقل البشري في ملكنا وطوع ارادتنا نستطيع التصرف بها في ما نشاء وعلى ما نشاء . والاسباب المحسوسة التي بامتلاكها نتمكن من امتلاك قوة العقل هي المال في مظاهره المعروفة . فالمال اذن هو المراد من خاتم المارد وهو المراد من بساط الريح وهو هو المراد من قبع الاختفاء . افركوا المال بايديكم افركوا هذه التي يقال لها الليرات الانكليزية او العثمانية او الفرنسوية فيقول لكم المارد اعني قوة العقل الانساني لبيك لبيك ماذا تريد . قولوا لهذه الليرات صيري طعاماً وشراباً فتصير . قولوا لها صيري اثاثاً وريا شاً وزينة فتصير . قولوا لها صيري قصوراً تناطح السحاب وفيها العبيد والاماء والجواري والخدم والحشم على مراتبهم فتصير . قولوا لها صيري حدائق وجنّات تجري من تحتها الانهار فتصير . قولوا لها صيري مركبات وخيولاً وعرابا و بنادق ومدافع فتصير . قولوا لها صيري جيوشاً جرارة لا يعرف اولها من آخرها وازحفي على الصين والهند وقلب افريقية واخضعي تلك البلدان اوعمري تلك المجاهل واستخرجي ما بها من الخيرات والكنوز الطبيعية فتطيع صاغرة . قولوا لليرات صيري مدارس ومعابد صيري ملاجىء للفقراء ومستشفيات للمرضى صيري سككاً حديدية ومعامل صناعية وتلغرافات وتلفونات ومراكب شراعية وبخارية بل قولوا لها صيري ما يمكن ان يخطر لكم ببال مما في قوة العقل البشري ان يوجدهُ فتصير بالحال الى ما اردتم

فالمال اذن هو خاتم المارد الذي عناهُ صاحب القصة وهو امر حقيقي وجودي لا مجرّد اوهام وتخيلات يحلم بها الجاهل و يتفكه باستحالتها العاقل . تقولون لي فهمنا تأويلك خاتم المارد وهو تأويل حق لا يستطاع انكارهُ لان المشابهة ظاهرة اتم الظهور لكن كيف تؤوّل بساط الريح قلت أليس المارد الذي يحضر عند فرك الخاتم هو نفس المارد الذي يحضر عند ضرب بساط الريح . فاذن ليس بساط الريح الاّ نوع خدمة مختلفة في الاعتبار فقط عن خدمة الخاتم وعليهِ فلننظر في خصوصية هذه الخدمة وفيما اذا كان يمكن تطبيقها على خدمة اخرى من خدم المال . بساط الريح يقطع بصاحبهِ على ما في القصة المسافات المحصورة التي لا تقطع بدونهِ . كذلك المال يقطع بصاحبهِ مسافات مراتب الهيئة الاجتماعية المحصورة التي لا يمكن ان تقطع بدونهِ . اي مسافة ابعد من المسافة بين رتبة العامة ورتبة الخاصة ؟ ام

اي مسافة اشد هولاً من المسافة التي بين رتبة الصعاليك الفقراء ورتبة الامراء ؟ هذه المسافة هي المسافة المحصورة وكل رُقي وطلاسم الترائب البشرية مقامة على ابوابها تمنع من تجاوزها وتحظر على غير اهل الرتبة ان يصلوا اليها. قولوا لي متى كان يستطيع الفقير السوقة ان يقطع المسافة التي بينهُ وبين الاعيان من الكبراء والعلماء والامراء . ما زالت هذه المسافة ولن تزال بعيدة محصورة لا يستطاع قطعها الاَّ بهذا البساط « بساط الريح » الذي هو عبارة عن المال الكثير ورمز اليهِ

لا تزعموا ايها السادة ان كلامي على سبيل المبالغة والتهويل . انظروا الى الانكليز وهم من ارقى الشعوب المتمدنة في الحال فان بين سوقتهم و بين خاصتهم من التباين والتباعد ما لا يعرفهُ الاَّ من خبر القوم وعرف عوائدهم . فان الخاصة يرون من اكبر العار عليهم ان يخالطوا السوقة او يجالسوهم في حال من الاحوال . لكنَّ هؤلاء السوقة اذا حصلوا على الغنى فتح لهم الخاصة من الاعيان والكبراء والعلماء والامراء صدورهم وقصورهم ومنتدياتهم على اختلاف انواعها . و بعبارة اخرى نقول ان الغنى يمكّن اهلهُ عند هذه الامة العظيمة من قطع مسافة رتبهم الاجتماعية مهما كانت تلك المسافة بعيدة . واذا اغتنى الفقير بينهم امكنهُ ان يصل الى اعظم الرتب واشرفها في حين كانت طريقها محصورة عليهِ من قبل لا يستطيع ان يخطو فيها خطوة واحدة. هذه ايضاً الامة الاميركانية والرتب الاجتماعية لا اثر لها في نظاماتها السياسية والقانون يصرح بتساوي كل فرد من افرادها في جميع الحقوق المدنية ومع ذلك لاغنيائها مرتبة ممتازة لا يُوصل اليها الاَّ بالغنى . فمرتبة او طبقة الاربعمئة في نيويورك معروفة مشهورة واهل هذه الطبقة على ما هو معروف مستقلون بمعاشراتهم وجمعياتهم واجتماعاتهم وليالي لهوهم ومسراتهم لا يطمع احد ان يشاركهم فيها او يصل اليها الاَّ بساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ انكلترا ترون انهُ كان بين عامتهم بوجه الاجمال من جهة و بين خاصتهم واشرافهم من جهة اخرى مسافةٌ محصورة في الحقوق والامتيازات ما كان يستطاع قطعها بوجهٍ من الوجوه لكن الفضل كلَّ الفضل في ازالة هذه المسافة وفك طلاسم سحرها انما كان لبساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ الامة اليونانية فان حكيمهم الشهير صولون جعل التفاوت بين طبقاتهم على نسبة التفاوت في المال فجعل المال بساطاً يطير بهِ صاحبهُ من رتبة الى رتبة اعلى منها الى ان يصل الى اعلى الرتب الممكنة . راجعوا تاريخ الامة الرومانية العظيمة فانها كانت تقسم الى طبقتين طبقة العامة او البليبيان وطبقة الاشراف او البتريشيان وكانت المسافة بين هاتين الطبقتين مما لا يمكن تجاوزهُ الاَّ ان بساط الريح

ما زال ينقل البليبيان واحداً بعد الآخر الى طبقة البتريشيان حتى ازال ظلامس هذه المسافة وكسر ابوابها التي كانت تحول دون عامتهم ودون منزلة الشرف التي كانت لخاصتهم

بقي عليَّ تأويل قبع الاختفاء و بيان المراد منهُ واراني لا احتاج الى تعب في اقناعكم انهُ يُرمز بهِ الى المال ايضاً انما الصعوبة في بيان وجه الخدمة التي تقصد من قبع الاختفاء . على ان من راجع القصة وتأمل المنفعة التي كانت تحصل اصاحب هذا القبع رأى كل ذلك منطبقاً على القول المشهور وهو ان المال يستر معايب صاحبهِ فلا ينالهُ مضرَّة المذمَّة وقبح الاحدوثة التي لا بدَّ منها اذا ظهرت المعايب وكثر تحدث الناس بها . فهذا صاحب المال اذا كان جباناً واستحق المذمة على جبانتهِ ستر المال هذه الخصلة فلم يظهر جبنهُ بل قد يعدون الجبانة منهُ تبصراً وروية واحجاماً في موضع الاحجام . وكذلك البخل فيهِ فقد لا يرونهُ منهُ بخلاً ويتأوَّلون لهُ مظاهر البخل انها مظاهر اقتصاد وحسن تقدير . وقس على ذلك سائر المعايب فانَّ المال يسترها على صاحبها فيوقى بذلك من المذمة والعار اللاحقين باهل هذه المعايب

انظروا الى الخطى من الاغنياء الطيَّاشين الذين يجري على ألسنتهم ما يخطر في قلوبهم فان غالب الناس لا يرون ذلك حمقاً منهم ولا طيشاً او تسرُّعاً يستوجبان التنقص والازدراء انما يحسبون ذلك لهم من باب حرية الافكار و بغض الرياء والنفاق . وبالاجمال فاكثر النقائص والمعايب التي تعتد على الفقراء والسوقة من الناس امَّا ان تخفى عن العيون فلا يرونها في الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة واما ان تنقلب صفتها فيرونها فضائل فيهم وكمالات . نعم هذا من شرور الغنى لا من منافعهِ ولكنهُ خدمة من خدم المال لصاحبهِ تمنع العيون من رؤية مقابحهِ وتقيهِ شرَّ تبعتها فيما لو ظهرت في مظاهرها الحقيقية

لا احتاج ان اذكر لكم كل انواع الوقاية التي يقيها المال اهلهُ والاضرار التي يصرفها عنهم مما هو مشاهد من الوقائع الكثيرة والحوادث التي تعرفونها قديماً وحديثاً فانها من الكثرة ما لو اردت تعدادها لاقتضى لي ذلك ايام قبل ان آتي على آخرها . انما يمكنني ان اذكر لكم ما يعرفهُ كل منَّا باختباره وهو انَّا نغضي اصحاب المال نغضب من نقائصهم واعمالهم الشاذَّة ونبلغ بنا الحدَّة الى ان لا نقدر في ثلبهم والتنقُّص منهم حتى يخيَّل للسامع انَّا اذا التقينا بهم لا نصرفنا حارفٌ عن تقريعهم بمعائبهم في وجوههم وايقاع كل نوع من الاذى والاهانة بهم لكنَّا اذا التقينا بهم ورأينا ابهة غناهم نسينا كل ما قلناهُ فيهم واخذنا في مجاملتهم والثناء عليهم على عكس ما ظهر منا في غيبتهم بل ربما نزيد في المديح والتملق لهم في حضرتهم اضعاف ما كان منا من ذمهم ومجافاتهم في الغيبة . ما الذي اوجب كل هذا التغير

فيها . ما الذي اوجب كل هذا التغاضي بل ما الذي اوجب كل هذا العمى والتعامي الغريب العجيب حتى انّا لا نرى فيهم الآن شيئاً مما كنا نراهُ قبيل اجتماعنا بهم . ذلك لانهم يلبسون على رؤوسهم في بيوتهم ومجالسهم قبع الاختفاء و بعبارة اخرى أُبَّهة المالك وزخارفهُ فلا نعود نرى فيهم شيئاً من المعايب التي كنا نتَّهمهم بها . وهذا ساوٍ لاختفائهم عن اعيننا وموافق كل الموافقة لما نذكر عن خصائص قبع الاختفاء

لا يؤخذ عليَّ من كلامي ان الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة هم شرٌّ من غيرهم من بقية الناس حاشا . حاشا لله أن اتَّهمهم هذه التهمة التي يميل الى ان يتَّهمهم بها كثيرون من المتفاصحين . بل الذي اعتقدهُ فيهم أنهم يوجه الاجمال خير مما يُظنُّ فيهم ومنهم من هو افضل الناس واكرمهم نفساً واسخاهم يداً وأحرصهم على نفع القريب ورفع شأن الانسانية . ولا اقول ذلك تزلفاً او لان قبع الاختفاء يمنعني الآن من رؤيتهم انما اقول الحق الواقع على ما اعتقد . والذي يتحصل من كلامي انَّ الهيئة الاجتماعية لا ترى من عيوبهم ما تراهُ من نفس هذه العيوب لو كانت في غيرهم . ثم هي لا تستطيع ان توصل اليهم الاذى الذي تستطيع ان توصلهُ الى غيرهم من افرادها لا ان عيوبهم اكثر من عيوب غيرهم

ايها السادة والسيدات الكرام انتهيت الآن من تأويل المراد من هذه الادوات الثلاث التي وردت في بعض الكتب والتي يظنّ بها انها كتبت هناك لمجرّد الفكاهة واللهو من غير ان يتوجَّه خاطر كاتبها الى ظاهرة من ظواهر القوات الطبيعية التي تؤثر في احوال المجتمع الانساني . والذي اقولهُ الآن انهُ إن سُلِّم بهذا التاويل الذي اوَّلتهُ من انهُ يراد بالمارد قوَّة العقل البشري وانهُ يراد ايضاً بهذه الادوات الثلاث المال في جميع مظاهره وان الخواص التي نسبت اليها انما هي اشارة الى انواع الخدم التي يستطيع صاحب المال ان يستخدم العقل البشري من اجلها . ان سلّم بهذه كلها فليس اذن شيءٌ من المبالغة فيما ذكرهُ صاحب كتاب الف ليلة وليلة ونسبهُ الى هذه الادوات . ايُّ مبالغة في انَّ العقل البشري من اعظم القوات الطبيعية في هذا الكون . اي مبالغة في انهُ اعظم من القوَّة المغنطيسية وانهُ اعظم من القوَّة الكهربائية او انهُ اعظم من قوَّة النور والحرارة ؟ بل هو اعظم واقوى من جميع هذه القوَّات مجتمعة معاً لانهُ يعرف هذه القوَّات وهي لا تعرفهُ و يستطيع استخدامها بحسب ارادته ولا تستطيع هي ان تستخدمهُ . والى الآن فقد استخدم كثيراً منها وذلَّلها حتى اصبحت طوع ارادته يلعب بها كما يشاء . ولا شكَّ ايضاً انهُ سيتمكن في المستقبل من معرفة خواصّ هذه القوى وتذليلها في قضاء حاجاته فوق ما عرف وما ذلل منها الى هذه الساعة . ثم لما كان المال في

ما مضى وسيكون في ما يأتي اشبه بالبطارية الكهربائية او القنينة الليدنية يدخرُ فيهِ من قوة العقل كما يدّخر في تلك من القوة الكهربائية كان امتلاك المال عبارة عن امتلاك تلك القوة العجيبة الغريبة اعني قوة العقل الانساني اذن لا يستخف احد بالمال لان من استخف بهِ فقد استخفَّ بالعقل البشري وبثمرات العقل البشري وليحرص عليهِ من هو في يدهِ لان هذه الليرة مثلاً ليست بعدُ ذهباً اي مادةً جامدةً ميتةً بل هي بمثابة العقل او الرجل الحي العاقل يخدمك بقوة عقلهِ على نسبة ما هو مذخور فيها من القوة . ولذلك فربما تكون لك هذه الليرة عاملاً اعتيادياً يخدمك عشرين يوماً او صاحب احدى الصناعات المتعارفة كالنجار والبنّاء والحداد والحائك وغيرهم يخدمك اسبوعاً كاملاً من الصباح الى المساء وربما تكون حاسباً ماهراً او كاتباً بليغاً او طبيباً حاذقاً يخدمك كل منهم بما يساوي القوة المذخورة فيها من قوى عقلهِ

ايها السادة والسيدات الكرام لو كنت على منبر الوعظ لقلت ما اقولهُ الآن ان من يستخف بالمال يستخفّ باعظم انعامات الله عليهِ ومن ينفقهُ جزافاً في غير موضعهِ يخطئ ايضاً لانهُ لم يحسن استعمال ما خوّلهُ اياهُ الله . فالمالَ المال فانهُ وديعة الله عندنا كما ان العقل وديعتهُ ايضاً وهو بعد الصحة من اعظم النعم التي ينعم الله بها على مخلوقاتهِ . وصاحبهُ كان ولا يزال موضوع القبلة والكرامة بين اهلهِ وقومهِ ومعاصريهِ ولهُ المقام الاول بينهم إن قال أصغى الناس لقولهِ او أمر تبادروا الى طاعتهِ . وعلى كثرة الاغنياء في الامة تتوقف عظمتها وارتفاع شأنها ونفوذ كلمتها واتساع متاجرها وامتداد سطوتها في المعمور . وعلى كثرة الاغنياء ايضاً يتوقف غالباً اتساع الامة في المبرّات وانواع الاحسان ورفع شأن الانسانية . فالمعابد العمومية والمدارس الكلية والمستشفيات للمرضى والملاجئ للايتام وبيوت العجزة كل هذه للاغنياء فيها اليد البيضاء والفخر الباقي مدى الدهر . وبالاختصار اقول ان المقام الاول في الهيئة الاجتماعية كان ولا يزال للمال ولاصحاب الاموال الكثيرة

ايها السادة والسيدات الواقع المشاهد يصدق الحكم الذي قلتهُ من ان المقام الاول في المجتمع الانساني انما هو للمال ولاصحاب الاموال . وليس بعد الواقع المشاهد حجة تحتج او تعليل لتعلل ومع ذلك فتعزيزاً لما ذكرتهُ دعوني اورد لكم في هذا الصدد كلام اعظم رجال انكلترا في اواخر هذا القرن اعني بهِ اللورد بيكونسفيلد او المستر دسرائيلي المشهور فانهُ في روايتهِ المشهورة بتنكرد وهي الرواية التي اودع فيها معظم فلسفتهِ وافكارهِ الخطيرة يورد مشهداً جرى فيهِ حديث بين اللورد تنكرد ابن دوق بلامنت وبين ابنة رجل من اغنياء الاسرائيليين فساق الحديث مساقاً جعل فيهِ الابنة تسأل هذا العظيم الانكليزي السؤال

الا في فتكرموا بالانتباه الى ما سألتهُ هذه الفتاة والى ما اجابها به الشريف الانكليزي مما يدل على رأي اللورد بيكونسفيلد واعتقادهِ . قالت الابنة تخاطب اللورد تكرد : ولكن ارجو من فضلك ان تخبرني لاي شيء المقام الاوّل عندكم في اوربا . فصمت هنيهةً ثم قال وقد احمرَّت وجنتاهُ خجلاً يظهر لي ان المقام الاعلى للمال . هذا هو رأي اللورد بيكونسفيلد وهو صريح لا يدخلهُ شبهة ولا يقبل التأويل بوجه من الوجوه في انَّ المقام الاعلى في اوربا بل وفي اميركا وآسيا وافريقيا واوستراليا انما هو للمال .

قوة المال على نسبة كثرتهِ وكثرتهُ تتوقف على كيفية اكتسابهِ وانفاقهِ . اما اكتساب المال فمطلوب منكم ايها الرجال لا من السيدات واكتسابهُ موقوف على النشاط والامانة والاستقامة . يظنُّ كثيرون انهم يحصلون المال بالامانة وهم نيام فيحتقرون الصنائع و يترفعون عن الاستخدام الاَّ اذا كانت الخدمة شريفة كما يزعمون وشرفها بكثرة المعيَّن لها وربما صرفوا قبل ان يحصلوا على هذه الخدمة الشريفة السنين الطوال في الكسل والنوم . فليذهب امثال هؤلاء الى الولايات المتحدة وليشتغلوا النشاط من تلك الامة العظيمة فان رجالها لا تعرف معنى الملل ولا تشعر بالكسل وهم لا يحتقرون صناعة ولا يترفعون عن عمل مشروع . وجواب احد عظمائهم لمن عيَّرهُ بانهُ كان سمَّاح احذية جواب مشهور متعارف يفتخرون بهِ و يعلِّمونهُ صبيانهم في مدارسهم . واما كيفية انفاق المال فتهمُّ معرفتها الرجال والسيدات ولاسيما السيدات . ايها الشبان في زمن شبابكم قبل ان تصيروا اصحاب بيوت احترزوا كل الاحتراز كيف تنفقون ما تكسبونهُ من المال فانكم اذا كنتم تنفقون اكثر مما تكتسبون مسرعون الى الخراب والعار وكذلك اذا كنتم تنفقون ما تكتسبون لا تبقون منهُ فضلة تذخرونها . ايها السيدات بعد ان تصرن ربَّات بيوت احرصن كيف تُنفقنَ مداخيلكنَّ . على كيفية انفاق مداخيلكنَّ يتوقف فضلكنَّ وظهوركنَّ وظهور رجالكنَّ في مظاهر الكرامة والاعتبار . على كيفية الانفاق يتوقف ايضاً مستقبل اولادكنَّ فاما ان يشبوا للتباهة وحسن الذكر او يعيشوا و يموتوا في الخمول والفقر

في كيفية انفاق المال تراعى امور كثيرة يستحيل عليَّ ان اذكر الآن جميعها فاذنوا لي اذن ان اذكر منها امرين احدهما ينبغي تجنبهُ والاخر ينبغي الاخذ بهِ . تجنبوا اقول ذلك للرجال عموماً وللسيدات خصوصاً تجنبوا التذخ . ومعنى التذخ ايها السيدات ان تتكلَّفن محاكاة من هنَّ اغنى منكنَّ في ما هو من خصائص طبقتهنَّ فتطمحنَّ الى مجاراتهنَّ في البيوت الواسعة والرياش الفاخر واستخدام الخدم والتأنق في اللباس والزينة واقامة الولائم والحفلات .

السيدة الفاضلة السيدة الكريمة التي هي اهل لكل اعتبار وكرامة هي السيدة التي تعرف درجة غناها وتدبر بيتها بما تقتضيه الحكمة فتصرف النظر مطلقاً في جميع نفقاتها عن ان تشبّه بجاراتها اللواتي هن اغنى منها . السيدة الفاضلة تصرف النظر عن التشبه او البذخ لانها تعلم ان هذا التشبه يلحق بها الاستهزاء والسخرية اولاً ويوصلها الى الحاجة والفقر ثانياً

لا استطيع ايها السيدات ان اضع لكنّ قواعد للانفاق انهي في بعضها وآمر في بعضها ولا هو من خصائصي ايضاً بل كل سيدة ينبغي ان تكون هي الآمرة الناهية في بيتها لنفسها وفقاً لحكمتها . لكن مع ذلك لا يضرّ السيدة الفاضلة الحكيمة ان تعلّق في بيتها آية تذكرها دائماً ان تجتنب البذخ او التشبه الفارغ الذي يُوصل الى الخراب اخيراً . هذا ما يجب على كل سيدة ان تجتنبهُ . واما ما يجب عليها ان تتمسك به وتعمل بموجبهِ فهو «حسن التدبير» واريد بحسن التدبير ان تُقدّر السيدة بحسب حكمتها المبلغ الواجب ان تنفقهُ والذي في طاقتها ان تنفقهُ من مدخولها . وعلى ما يقولهُ الحكماء الاقتصاديون لا ينبغي ان يزيد هذا المبلغ عن ثلاثة ارباع مدخولها في السنة او اربعة اخماسهِ في الاكثر . ثم تنظر في الوجوه التي ينفق فيها هذا المبلغ من الطعام والشراب واللباس واجرة البيت وبقية الثريات الاخر المتعددة التي تدخل في حساب نفقاتها فتصرف الى كلٍّ من هذه الوجوه من ذلك المبلغ الذي قلناهُ القدرَ اللائق بهِ تجري في ذلك على نسبة معينة ثابتة لا تتجاوزُها . فانها إن فعلت ذلك شملت السكينة بيتها وحلّ فيهِ السلام والمسرّة والهناء . ثم لا يلبث ان يجتمع عندها من فضلات مدخولها الذي كانت تدّخرهُ من سنةٍ الى اخرى شيءٌ يكون قوةً لها ولبيتها تستخدمهُ في كلّ مقصد شريف ومرضيّ لله والناس

ايها السادة والسيدات اردت بخطابي على طولهِ وعرضهِ أن اقول ما يقولهُ كل معلم من معلمي هذه الامة وكل معلمةٍ من معلماتها لتلاميذها . بل اردت ايها السيدات ناثلات الشهادة قول لكنّ ما كان يقولهُ لكنّ معلماتكنّ الفاضلات صراحةً او ضمناً بصريح القول او بما هو ابلغ من القول والقدوة كل هذه السنين التي صرفتنها تحت مناظرتهنّ ومآل هذا القول وخلاصتهُ هو هذا . المال قوةٌ . المال نعمة من اعظم نعم الله بعد الصحة فايا كنّ ان تحتقرنهُ بانفاقهِ جزافاً او ان تتهاونّ منهُ . اجتهدن في تحصيلهِ كلما مكّنتكنّ الفرصة ومقتضيات الزمان والمكان من ذلك وابذلنّ دائماً جهدكنّ وويتكنّ في ان توفّرنهُ بكل واسطة شريفة . لكن بقدر ما نوصيكنّ ان تحصلنّ المال وتوفرنّ المال نوصيكنّ ايضاً ان لا تعبدنّ المال لان عابد المال يخسر الدنيا والاخرة والسلام